نظام الطبيعة والانسان والحيوان

نظام الارض ان تدور دورة من الغرب الى الشرق في كل اربع وعشرين ساعة فيكون الليل والنهار . ودورة في كل ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً من الغرب الى الشرق فتنشأ عنها فصول السنة وهي الربيع والصيف والخريف والشتاء

اتى على هذا النظام الذي سنه الخالق العظيم لحفظ الكون نحو ستة آلاف سنة عند علماء الدين وتسعة او عشرة آلاف عام على رأي علماء طبقات الارض . وما برحت الطبيعة محافظة على نظامها لانه من لزومياتها . ومتى تشوش اختلت الارض وقضي على من فيها بالتقهقر الملازم والخراب الدائم

وما يقال في الارض من حيث محافظتها على نظامها الطبيعي يقال في كل ما دبّ عليها من انسان وحيوان وكل ما ينبت فيها من اعشاب ونباتات ومزروعات وغياض ورياض وغيرها

فالبشر سنّ عقلاؤهم والمتمدنون منهم نظامات لهم لحفظ حقوقهم ومصالحهم المدنية والعمرانية والعمومية والخصوصية وغير ذلك . وللحيوانات على تباينها نظامات تمشي بموجبها وان لم يدركها اكثر البشر

هذه طائفة الذئاب من الوحوش الكاسرة يظنها معظم الناس لا ترتيب لديها ولا نظام على انّ لها نظامات يجهلها الانسان . وهذه طائفة النمل التي ينظر اليها المرء نظرة الازدراء والاحتقار حازت من النشاط والترتيب والنظام ما يذهل العقول ويحير الافكار

راقب سرباً من الذئاب يسير في البرية ترى له قائداً يقوده . وكل ذئب منه يسير بترتيب وراء رفيقه وكأنها كلها جنود مدربة يقودها قائد محنك . وتأمل طائفة من النمل في جدار تلقَ مالقيته في سرب الذئاب من القيادة او الزعامة والترتيب والنظام

وما يقال في الذئاب والنمل يقال في سائر الحيوانات كاسرة كانت او داجنة وطائرة او سابحة . ويلحق كل من يخالف النظام من تلك الحيوانات قصاص بقدر جرمه . فالذئب الذي لا يسير على سنن النظام او يخالفه اذ يمشي سربه يرتد عليه قائد السرب ثم سائر الذئاب فتمزقه تمزيقاً . وبديهي ان هذا القصاص عند طائفة الذئاب من الحيوانات بمثابة قتل القاتل عند البشر . وكل ما يقال في الذئاب بهذا الشأن يقال في غيرها من الحيوانات

خلق الله الانسان الاول آدم وسنّ له شريعة ونظاماً كما برأ تعالى الخليقة وسن لها نظامات تمشي عليها منذ البدء فقال له " من جميع شجر الجنة تأكل اكلاً واما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها " وهذه الشريعة او النظام اساس شرائع الجنس البشري

وقوانينه فهي اوفى . وكان لجماع الآباء الاولين والشعوب القديمة شرائع ونظامات وما فتئت نظامات هؤلاء الموسويين وشرائعهم مدونة في اسفار موسى كليم الله . وتلك الشعوب والامم التي عاصرت الموسويين وجاءت بعدهم كالكلدانيين والاشوريين والفينيقيين والحثيين والمصريين والادوميين والكنعانيين والعرب واليونان والرومان وغيرهم كان لهم شرائع ونظامات نقلها الينا المؤرخون القدماء كهيرودتس اليوناني الذي ولد عام ٤٨٤ ق . م وزنفو الروماني الذي ولد نحو ٣٨٠ ق . م ويوسيفوس العبراني الذي ولد عام ٣٧ ق . م وغيرهم

ولقد عني اليونانيون في ايامهم بالنظامات المدنية والشرائع الدولية . على ان الرومانيين نظموها وانقنوها . ثم اخذت شعوب الارض مبادي، نظامات الرومانيين وشرائعهم وفي مقدمتهم الامة النابليونية . وزادوا عليها كثيراً وشرحوها شروحاً حسب مقتضيات المكان ومطالب الزمان

ولا يزال معظم دول العمور ساعيًا الى سن نظامات جديدة وشرائع مفيدة ومهتمًا بتحسين قوانين بلاده وحكوماته . حتى ان الصين التي استولى الانحطاط عليها قرونًا افاقت من رقادها وبدأت بضبط نظاماتها وتحسين شرائعها وسنها على مثال شرائع العالم المتمدن

وارسال الصين البعثة المؤلفة من اثني عشر عضواً من كبار رجال الامة الصينية ومتهذبيها في هذه الشهور الاخيرة الى العالم الجديد واوربا لدرس شرائع القارتين ونظاماتهما العصرية اكبر شاهد على نهضة هذه الامة واشهر دليل على شدة اهتمامها بنظامات بلادها وشرائع دولتها . فالنظامات المدنية والشرائع الدولية والقوانين العمرانية رافقت الانسان منذ وجد الانسان الاول الى الآن . وهي ضرورية للدول ضرورة الهواء للانسان . ولازمة للامم والبلاد لزوم الماء للانسان والحيوان والنبات

وليست هذه النظامات من حاجات البشر ولا هي محصورة فيهم فقط بل هي من ضروريات كل ما نراه امامنا ووراءنا وفوقنا وتحتنا من هذه الخليقة العجيبة او هذا الوجود الذي لا يزال موضوع بحث الباحثين من علماء غربيين وشرقيين

فتلك الامطار التي تهطل وتحيي الزرع والضرع والانسان والحيوان والنبات نظامات وما تحويلها احيانًا في البلاد الباردة الى الثلج الا من برودة الجو . وما الغمار التي تأتي منها الا منبعثة من تلك الطوارىء الخارجية التي هي سبب من اسباب تشويش نظامها الطبيعي

لولا تلك الاهوية والرياح التي تظنها مضرة مانعة الزروع والاشجار النمو المطلوب وما اتت بالاثمار والفوائد المنتظرة منها . فالرياح المعتدلة تقوي جذوع المغروسات والمزروعات ومتى ثبتت جذوعها كثر نموها . والريح تسبب التقاح المعروف بلقح المغروسات ومتى تم

هذا الازدواج او اللقاح اثمرت المغروسات . اما الخطار الناشئة من الرياح الشديدة فهي من عوامل الطبيعة الخارجية . فاعتدال الرياح نظامها واختلال الرياح طوارئ خارجية تطرأ عليها فتشوش نظامها ويكون بذلك تشويش نظامها واختلاله

وتلك الاشجار الزهراء التي تنضم بعضها الى بعض عند تموجات اهوائه وتلك الزروع الخضراء التي تشاهدها تتمايس وتتعانق وتلك الرياحين الجميلة التي تنفح عبيرها وتلك الازاهير العطرية التي يعبق شذاها في كلها ذات نظامات طبيعية وفي نموها وجمالها ورائحتها وثمرها وفائدتها ادلة على نظاماتها التي دونت في كتاب الطبيعة العظيم

بل هذه القبة الزرقاء ونجومها وسياراتها وكواكبها كالشمس والقمر والثوابت وغيرها فان لها نواميس طبيعية ونظامات سطرتها لها انامل الطبيعة . ونواميس النور معروفة وهي « ان النور ينبعث بالتساوي من الجسم المنير الى الجهات كلها وانه يسير في خطوط مستقيمة اذا اخترق وسطاً متجانس الاجزاء . وان كثافته تنقص بقدر ما يزيد مربع بعده »

اما التشويش النظامي الذي يحدث للطبيعة بسبب الطوارئ الخارجية التي تطرأ عليها فهو بمقام الاختلال النظامي الذي يعرو الشعوب والدول فيفسدها و يلحق بها اضراراً فاحشة بل يسقطها من ذروة مجدها وقمة سعدها الى حضيض الشقاء والدمار

هذه بلاد السودان من افريقية فدكانت قبل ان احتلتها بريطانيا العظمى مسرح الجهل ومجزر سفك الدماء وفي اقصى دركات التأخر والانحطاط والتوحش لان النظام فيها كان معدوماً . اما اليوم فقد سنت الدولة الانكليزية نظاماً للقطر السوداني على حسب مقتضيات العصر فساد الامن في ربوعه وافتتحت مدارس التهذيب فاخذت تبدد غياهب الجهل من بلاده

ولا يسع الواقف على تواريخ القدماء الا التصريح بان كل امة حافظت على نظامها وكل دولة سارت على سنن قوانينها وكل قبيلة اتبعت شرائع بلادها حازت مقاماً من المجد والعز والرقي وان كل من خالف تلك النظامات من تلك الامم والدول انقلب عزها ذلاً وهناؤها شقاء وارتفاعها سقوطاً وتقدمها تأخراً

ولا حاجة الى القول ان الامة الاسرائيلية لما خالفت شرائعها ونظامها المدنية والدينية دبت في مجتمعها روح الموت الادبي والمدني وعبث بجامعتها عابث فمزق شملها وانفصل حبلها وما المصائب والاضطهادات التي لقيتها هذه الامة في جميع قارات العالم بل ما المذابح التي جرت على شعبها المتفرق بل ما السيف الذي عمل في رقاب كثيرين من هذا الشعب العريق في القدم اينما كان وحيثما حل في خلال القرون الخالية وفي كل قرن من القرون المتوسطة والحديثة ما خلا القرن الثامن عشر للميلاد بل ما الداعي الى انتصاء عروة اليهود على وجه البسيطة

الا بسبب مخالفتهم للنظام والشريعة. وهكذا يقال في البابليين الذين بلغت اسوار مدينتهم العظيمة ٣٠٠ قدم ارتفاعاً و٨٧ قدماً عرضاً وبلغ محيط دائرتها ٤٨ ميلاً . فقد سقطت بيد المادين والفرس سنة ٥٤٤ ق . م . لانهم سكروا في عيدهم السنوي فغفلوا عن واجباتهم نحو الشريعة الدولية والنظام الادبي فهبطوا ذلك الهبوط المريع وخسروا تلك المدينة العظيمة التي اجمع المؤرخون القدماء على انها كانت سيدة الممالك ودرة تاج فخار الامصار .

خسر البابليون على ذلك العيد بخسارة بابلهم مئة باب مصفحة بالنحاس وخسروا هيكل بابل الذي كان ارتفاعه ٦٠٠ قدم والمجيرة الصناعية التي بلغ محيطها مئة ميل وعمقها زهاء ٣٥ قدماً . وفقدوا ايضاً الجنائن الصناعية التي جعلت طبقات بعضها فوق بعض وبلغ علوها علو البرج . دع الدور الفخيمة والقصور الشاهقة والابنية الجميلة

والواقف على تاريخ اليونان القدماء وامتداد سلطتهم وما بلغوه من قوة السعد وعلى تاريخ الرومان وما وصلوا اليه من مناعة العز والمجد لا يرى بداً من التصريح بان تشويش نظامهم الدولي واختلال شرائعهم المدنية كان قاضيين على تلك السلطة وذلك المجد والسعد بالتلاشي والزوال .

فحري والحالة هذه بحكام البلاد الذين تشوش نظامهم واخذ سوس الفساد ينخر جسم مدنيتهم وعمرانهم وحقيق بالآخذين بنواصي العباد ممن استولى عليهم الرقاد ان يستيقظوا ويعتبروا في مصير تلك الدول القديمة التي درست آثارها وبتأملوا في ما فعل التشويش النظامي بالشعوب الماضية التي طمست اخبارها . وان يتمثلوا بالدول الراقية والامم الناهضة ويقوموا بمطالب التمدن ويلبوا نداء هذا العصر . بل جدير بكل فرد يحب شعبه ويغار على وطنه ان يحافظ على قوانين بلاده ويساعد في تأييد نظام دولته وحكامه . فمتى تحسنت شؤون الافراد تحسنت شؤون العيال فالجماعات فالشعوب

واذا كان الانسان ملكاً او مملوكاً وجيهاً او مملوكاً رئيساً او مرؤوساً غنياً او فقيراً عالماً او جاهلاً لا يجد من نفسه دافعاً يدفعه الى المحافظة على نظام البلاد والدول والمشاريع المدنية والعمرانية فله امثلة مما يراه في الجهات الست من جماد ومياه وحيوانات ونباتات واجرام ما يجعله ينادي على رؤوس الاشهاد بوجود النظام ووجوب المحافظة عليه ووجوب ضرورته للبشر ضرورة الهواء والماء والشمس والطعام للانسان

اوماها نبراسكا (الولايات المتحدة) يوسف جرجس زخم